بلاد الشام في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: الخاص والعام في التجربة التاريخية

تقرير رضوان السيد

نظّم كرسي دراسات الشرق الأوسط بجامعة أرلنغن Erlangen بألمانيا الاتحادية ندوة «علمية» بين ٦ و٨/ تموز (يوليو) ١٩٨٩ عن بلاد الشام وضمن الدولة العثمانية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد حضر الندوة بعض كبار رجالات الدراسات العثمانية؛ كما لوحظ غياب كثيرين من مشاهير الدارسين. وربما عاد ذلك إلى أنّ منظّمي المؤتمر أو الندوة لم يدعوا غير أولئك الذين لهم دراساتٌ عن بلاد الشام في العصر العثماني.

أما اليوم الأول من أيام الندوة فقد انتظمت فيه الدراسات تحت عنوانين في فترة ما قبل الظهر كان العنوان: «**الحدود والإدارة، والوعي السياسي**» وحاضر فيه كُلٌّ من **بطرس أبو منّه**: «ظهور ولاية سورية ونهايتها ١٨٦٥ ـ ١٨٨٨»، **وحسن كيّالي**: «العثمانية والقومية والإقليمية: سورية الكبرى في العهد الدستوري العثماني». وكان عنوان جلسة ما بعد الظهر: **جماعات النُخَب ـ** وحاضر فيها **فيليب خوري**: «سياسات النُخَب بسورية: بعض الملاحظات والمراجعات»، وعادل منّاع: «الاستمرار والتغير في النُخَب الفلسطينية في العهد العثماني الأخير»، وكارل بربير: «ثروة بعض العلماء في القرن الثامن عشر في ضوء سجلّات قسّام العسكر العثماني».

أَوضح **بطرس أبو منّه**، مدرّس التاريخ الحديث بجامعة حيفا، أنه على أثر

صدور قانون الولايات العثمانية عام ١٨٦٤ م جرى تأسيس ولاية سورية التي تكوّنت من الولايتين السابقتين: دمشق، وصيدا. وكان المقصود من هذه السياسة توحيد أجزاء الامبراطورية الباقية في نواحٍ كبرى، ذات حكمٍ مركزيٍّ قويّ؛ كفيل بإنهاء الكثير من أسباب التذمُّر والاضطراب. وهذا التوحيد جديدٌ على بلاد الشام العثمانية. فمنذ العام ١٥٢٠ ظلّت بلاد الشام تتراوح إداريّاً بين ٢ و٥ أقاليم أو سناجق أو ولايات. كما أنّ تسمية الولاية الموحّدة الجديدة بسورية جديدٌ أيضاً. فقد اعتاد العثمانيون على التسمية بعاصمة الولاية، وليس بالناحية أو الإقليم أو البلاد. واختيرت دمشق عاصمة «للولاية»؛ فأغضب ذلك أهل بيروت الذين رفعوا عرائض احتجاجٍ للباب العالي. والمعروف أن مقرّ والي صيدا منذ العام ١٨٤١ م كان ببيروت. وعندما توفّي الصدر الأعظم علي باشا عام ١٨٧١، وحلّ محلّه محمود نديم باشا بدأ الاهتزاز في الولاية الجديدة. فمحمود نديم باشا في نظر بطرس أبو منّه كان محافظاً، وضد التنظيمات، ومع تقديم المسلمين على المسيحيين. وقد قام عام ١٨٧٢ م بفصل القدس عن الولاية، وتأسيس سنجق مستقلّ لها. ثمّ في عام ١٨٨٧ م جرى فصل خمس سناجق جديدة، كما جرى إنشاء «ولاية بيروت». وهكذا انتهت «ولاية سورية» عملياً وإن ظلّت تحمل هذا الاسم، وبقي تابعاً لها ما بين دمشق وحماة، وبعلبك، والبقاع، وحاصبيا، وراشيّا.

أمّا حسن كيّالي فبدأ دراسته بذكر جورج أنطونيوس، وكتابه الكلاسيكي في اليقظة العربية، ومقولته بالنشوء المبكّر للفكرة القومية. ثم دارت مقالتُه كلّها على قراءة التاريخ المبكّر للحركة القومية ببلاد الشام قراءةً جديدةً استناداً الى ألبرت حوراني، وزين نور الدين زين، وفيليب خوري وآخرين. وخُلاصة رأيه أنّ الحركة القومية (العربية) ما ظهرت حقيقة في بلاد الشام إلّا عشيّة الحرب العالمية الأولى بعد سقوط عبد الحميد الثاني. لكنّ ظهورها اقترن بظهور الحركة السورية، والحركات الإقليمية الأُخرى.

وجاء بحث فيليب خوري، الأستاذ بمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا MIT، عن النُخَب في فترة ما بعد الظهر في محاولةٍ لفحص نموذجي أيرا لابيدوس،

وألبرت حوراني للنُخَب والوجهاء ورجالات الشؤون العامّة في المدن الإسلامية في العصور الوسطى المتأخرة، ومطالع العصر الحديث. أمّا أيرا لابيدوس I. Lapidus فكان قد طرح نموذجه التحليلي في كتابه: **المدن الاسلامية** في العصور الوسطى المتأخرة (وتُرجم الى العربية مرتين). وأمّا ألبرت حوراني فطرح نموذجه في مقالته: «الإصلاح العثماني وسياسات النُخَب» (١٩٦٨). وخُلاصة رأيهما أنّ الحواجز الإسلامية كانت مسودة بمجموعات من النبلاء والوجهاء الذين يتصارعون فيما بينهم، ويتنافسون لدى السلطة المركزية؛ على المال والجاه. وخوري يرى أنّ اكتشاف **الوجهاء** وسياساتهم وصراعاتهم كبداية للتحليل خدم الدراسات كثيراً. لكنه اعتبر أن وجهة النظر في التحليل هذه تنظر للأمور من «فوق»، وتتجاهل فئات الشعب الأخرى. ويضرب أمثلة على ذلك من منتصف القرن التاسع عشر وما بعد حيث تمكّنت فئاتٌ كثيرةٌ من غير النُخَب الوجيهة أن تؤثّر في مجرى الأحداث.

ودرس **عادل منّاع**، المدرّس بجامعة حيفا، والباحث حالياً بسانت أنطوني بأوكسفورد، الاستمرار والتغيُّر في النُخَب بفلسطين أواخر العصر العثماني فبدأ بنقد النظرات السائدة ثم ذكر تقسيم النُخَب لدى الباحثين الى: علماء، وأشراف، وأعيان، وأغوات. وهو يذكر أنّ الظاهر من هؤلاء في فلسطين ثلاث فئات: الأفنديات، والعلماء، والأشراف (فئة أولى)، والبيكات والأغوات (وهم المتسلِّمون من العسكريين لشؤون الإدارة والضرائب والأمن في النواحي ـ فئة ثانية)، والمشايخ (وهم وجهاء الأسر الفلّاحية الكبرى في الريف). كان هؤلاء في نظره يتقاسمون السلطة المتاحة محلياً. وقد طرأت عليهم تغييرات أهمّها اثنان: دخول محمد علي إلى بلاد الشام (١٨٣١ ـ ١٨٣٩)، ثم عصر التنظيمات.

وفي اليوم الثاني من أيام الندوة تحدث في جلسة ما قبل الظهر كُلٌّ من **نجوى القطّان**: «الأقليات بدمشق في القرن الثامن عشر»، وتوماس فيليب: «السلطة السياسية والتنظيم الاجتماعي أو البنية الاجتماعية في عكا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر»، وعبد الكريم رافق: «المدينة والريف في السياق التقليدي: دمشق في الربع الأول من القرن الثامن عشر». وكان عنوان

الجلسة: «الحياة الحَضَرية أو المدينية». وفي فترة ما بعد الظهر بعنوان: «الحياة المدينية، والثروة المادية» تحدّث باسكوال عن المرافق المستجدة بدمشق أواخر القرن التاسع عشر. وتحدّث هاينز غاوبه H. Gaube عن حيّ بحلب من الناحية العمرانية، وأندريه ريمون عن حلب وعلاقة الجغرافية المدينية بالاجتماع المديني في القرن الثامن عشر.

أمّا نجوى قطّان فلم تتحدّث في الواقع عن غير الأقلية اليهودية التي تقول إن عدد أفرادها في الربع الأخير من القرن الثامن عشر بدمشق كان ٣١٤ بين رجلٍ وامرأةٍ على وجه التقريب أخذاً من سجلّات المحكمة الشرعية لتلك الفكرة. ثم تفصّل في معلوماتها استناداً الى سجلّات المحكمة ذاكرةً الطوائف اليهودية، والمواطن الأصلية لليهود بدمشق، وأحياء دمشق التي كان فيها يهود، والأوصاف التي تصفهم أو تسمّيهم بها السجلّات، والحِرَف والتجارات التي كان يتعاطاها هؤلاء، ونظرة رجال القضاء لهم، وأنواع الخصومات التي كانوا يلجأون من أجلها للمحكمة. كما تُناقش مسألة ما تُسمّيه الدراسات الصهيونية الحديثة: الإدارة الذاتية أو المستقلة لليهود داخل المجتمع الإسلامي الوسيط؛ لكن بشكلٍ غير مباشر. إذ يبدو أنه لم تكن للحاخام بدمشق مهمات اجتماعية أو قانونية أو سياسية تجاه أبناء طائفته؛ إذ كانوا يلجأون في أُمورهم غير التعبدية للقاضي المسلم.

وحاول توماس فيليب؛ أستاذ التاريخ الحديث بجامعة أرلنغن؛ رسم مونوغرافيا سياسية واجتماعية لعكّا في القرن الثامن عشر في عهود ظاهر العمر (١٧٤٩ ـ ١٧٧٥ م)، وأحمد باشا الجزّار (١٧٧٥ ـ ١٨٠٤ م)، وسليمان باشا (١٨٠٤ ـ ١٨١٨ م). وقد ذكر تفاصيل مفيدة عن جغرافيتها وأسوارها وتجارتها، وريفها، وعلاقتها بالبدو من حولها. كما تحدّث عن ثروة ظاهر العمر، وعن أعوانه العسكريين المغاربة، وحلفائه المتاولة. أما جنود الجزّار فكانوا من الإنكشارية والمماليك، وبأعداد ضخمة. ويذكر ت. فيليب أنه ربما كانت أكثرية سكّان عكّا أيام الجزار من المسيحيين (الروم الكاثوليك) الذي اجتذبهم عهد ظاهر العمر. وربما كان عدد سكّان عكّا عشرين ألفاً أيام الجزّار، وقد انخفض

في الربع الأول من القرن التاسع عشر إلى ثلاثة آلاف. ويُرجع فيليب ذلك إلى اضطراب تجارة القطن التي كانت عماد اقتصاد المدينة.

ويعني عبد الكريم رافق، الأستاذ المعروف بجامعة دمشق؛ لعلاقة الريف بالمدينة (دمشق) في الربع الأول من القرن الثامن عشر؛ قراءة علاقات الريف بالمدينة اقتصادياً. وهو يُلاحِظُ أنّ تلك الفترة شهدت تواري الإقطاعيين المحليين (الزعماء، وهاملي التيمارات) لصالح البرلية من الإنكشارية المحليين الذين سيطروا على الأرض. يستنتج عبد الكريم رافق ذلك من قلة اتجار أولئك، وقلة عقودهم في سجلّات المحاكم الشرعية لتلك الفترة. ثم من سجلّات القسّام العسكري. والقسّام العسكري كان يشرف على شؤون العسكريين في حياتهم وبعد وفاتهم. وفي حين كان **القسام البلدي** مكلَّفاً بشؤون المدنيين. ولذا، فقد اعتمد رافق على سجلّات الطرفين لمراقبة التطورات الاقتصادية مع صعود أُسرة العظم للسلطة، ومركزتها لها بدمشق وريفها. والدراسة ممتازةٌ، وكثيرة التفصيلات شأن رافق دائماً في استخداماته لوثائق المحاكم ومحفوظاتها.

ويدرس جان بول باسكوال، الباحث بجامعة أكس آن بروفانس تجدُّد الحياة المادية ومؤسساتها وتطورها بدمشق القرن السابع عشر مستنداً في ذلك إلى التطبيقات الحقلية التي أرساها في هذا المجال فرنان بروديل في دراساته المختلفة وبخاصة كتابه: الحضارة المادية والرأسمالية (١٩٦٧). والدراسة هنا منهجية مبدئية، وليست ميدانية بالمعنى الذي قصده بروديل؛ بل إنّ الباحث يريد أن يدلّل على فائدة هذا المنهج في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي.

أمّا دراسة Gaube عن حيٍّ في شمال شرق مدينة حلب مطالع القرن العشرين؛ فهي تقريرٌ عن عملٍ علميٍّ قال إنه يقوم به مع زملاء منذ العام ١٩٨٧، ويتضمن تتبع ٨٠٠ منزل في ذلك الحي من النواحي العمرانية والاجتماعية والقدرة على الاستمرار أو الصلاحية له ـ ويشمل ذلك سؤال السكّان، ومراقبة تخطيط الحيّ والتغيرات التي طرأت عليه عبر العصور. والتقرير قصيرٌ، ومعلوماته موجزةٌ بحيث لا يمكن الحديث في الحقيقة عن

«دراسة» بل عن خطةٍ لدراسة. وللباحث المذكور كتابٌ ضخمٌ عن حلب من الناحية العمرانية صدر بالاشتراك عام ١٩٨٦.

وانصبّ حديث أندريه ريمون A. Raymond، الباحث المعروف في تاريخ المدن الإسلامية، وصاحب الدراسة المشهورة عن القاهرة في القرن الثامن عشر؛ على بحث إمكان التلازُم أو التلاؤم بين «الفئة الاجتماعية»، و«المجال المديني» بحلب في القرن الثامن عشر. وهو يناقش بذلك أُطروحة تلميذٍ له هو اللبناني أنطوان عبد النور؛ الذي قُتِل في الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢. وكان أ. عبد النور قد نفى وجود مثل هذا التلازُم أو التلاؤم في المدينة الإسلامية بين «الحي» والفئة التي تسكنه من حيث الطراز المعماري، ومن حيث العلاقات الاجتماعية، واعتبر المدينة الإسلامية مدينة «سُواسية». بيد أنّ ريمون يدرس من خلال وثائق المحاكم الشرعية، وبعض الدراسات الحديثة الأخرى عن الأقليات بحلب إمكان وجود تمايز في الجغرافية السكانية، والجغرافية المعمارية بين الأحياء. ويذكر أمثلة على ذلك أحياء المسيحيين واليهود.

وبعكس اليوم الأول من أيام الندوة؛ فقد أُضيفت في اليوم الثاني (١٩٨٩/٧/٦) جلسةٌ مسائيةٌ بعنوان: «اتجاهات تحولات السكّان في الريف الشامي». أمّا **أمنون كوهن** الذي له دراستان سابقتان عن القرن السادس عشر، والقرن الثامن عشر بالقدس من خلال وثائق محكمتها الشرعية؛ فقد تحدّث هنا عن الوجود المسيحي بحلب في القرن التاسع عشر من خلال سجلٍّ، مقارناً لأعدادهم وأوضاعهم بظروف القرن السادس عشر من خلال **التحارير** المعروفة. ومن الناحية الأثرية/ الجغرافية تحدّث W.D. Hutteroth عن تطورات التصحُّر بالجزيرة الفراتية بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر. **وهيتروت** أُستاذٌ للجغرافية بجامعة أرلانغن، وله بحوثٌ عن سورية والجزيرة من قبل. أمّا أمنون كوهن فهو أُستاذ بقسم التاريخ الإسلامي بالجامعة العبرية بالقدس. **وألقى الباحثان** نورمان لويس (بريطاني)، وديك دويس (هولندي) محاضرةً مشتركةً عن «حماة وريفها» في بدايات القرن التاسع عشر استناداً ـ من جديد ـ الى وثائق محكمتها الشرعية. والمحاضرة مهمة لتركيزها على

قضيتي ملكية الأرض، والضرائب عليها؛ وظروف نشوء الملكية الخاصة للأرض هناك ـ مما أثّر تأثيراً كبيراً في التاريخ الحديث والمعاصر للمدينة. وتحدّثت **مارثا موندي** الباحثة العاملة بجامعة اليرموك عن الملكية والضرائب في إقليم جنوب حوران؛ الذي كان يُدار من مدينة إربد الأردنية الآن. وقد اعتمدت في بحثها على الدفاتر الرسمية التي وُضعت للسنجق (سنجق حوران/ قضاء عجلون) مع نشوء ولاية سورية، وبُدىء بالتسجيل بشكلٍ دقيقٍ في هذه الناحية بين ١٨٧٠ و١٨٨٠ م. وتحدّث **كرايزر** أُستاذ الدراسات العثمانية بجامعة بامبرغ عن المتصرّف مصطفى ضيا باشا، وثروته، وملكياته؛ ببلاد الشام.

واحتوى اليوم الأخير من أيام الندوة على ثلاث جلسات أيضاً كانت بعنوان: الثقافة والتربية، والتجارة والاقتصاد، والتاريخ، وتغيرات الوعي التاريخي. أمّا الباحث شترومایر Strohmeier من جامعة بامبرغ؛ فقد تحدّث عن التعليم بسورية في القرنين التاسع عشر والعشرين. وقال إنّ الحديث عن سياسة رسمية للتعليم بسورية غير ممكن قبل محاولة إبراهيم باشا (١٨٣١ ـ ١٨٤٠). وتأتي نهضةٌ شاملةٌ في عدد المدارس وبرامجها في عهد مدحت باشا. وهو يذكر في هذا المجال نشوء جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، كما يذكر تقريرين لمحمد عبده أثناء نفيه ببيروت عن خطر التبشير والمدارس الخاصة، وضرورة دعم نظام التعليم الرسمي أو المدارس الإسلامية الخاصّة. ويُلاحظُ الباحثُ اهتماماً ملحوظاً من جانب السلطان عبد الحميد بالتعليم في المناطق العربية من الإمبراطورية. وألقت الباحثة المعروفة، والأستاذة بجامعة دمشق؛ **خيرية قاسمية** بحثاً طويلاً عن روحي الخالدي (١٨٦٤ ـ ١٩١٣) وما يمثّله في تاريخ فلسطين الحديث من حركيةٍ ثقافيةٍ، ووعيٍ سياسيٍّ إصلاحي. وألقى **هولغر برايسلر**؛ من جامعة كارل ماركس بلايبزغ محاضرة عن Wetzstein قنصل بروسية بدمشق (١٨٤٩ ـ ١٨٥٣ م) الذي كان مهتماً بالدراسات الاستشراقية، واقتنى مجموعة قيّمة من المخطوطات هي اليوم بمكتبة الدولة ببرلين. وتحدّث في الفترة الثانية كُلٌّ من **غيلبار** من جامعة حيفا عن العلاقات بين الأقاليم العراقية والسورية المتجاورة في القرن التاسع عشر، وتغير أنماط

تلك العلاقات؛ E. Rogan الباحث الأميركي عن ازدهار **قضاء السلط** في الحقبة العثمانية المتأخّرة وأسبابه؛ والباحثة المعروفة **ليندا شيلخر**، الأستاذة بجامعة فيللانوفا، بالولايات المتحدة؛ عن المجاعة الكبرى ببلاد الشام في الحرب العالمية الأولى. وفي الفترة الثالثة تحدث **الأستاذ مكارثي**؛ من جامعة لويزفيل، بالولايات المتحدة؛ عن دلالات التطورات الديمغرافية والجغرافية ببلاد الشام بين العصر العثماني المتأخر، ومرحلة الانتداب. وتحدّث **بروس ماسترز** عن السياسات العثمانية تجاه سورية في القرنين السابع عشر والثامن عشر وتطوراتها. وتابع **رابينوفتش** ظهور إيديولوجية سورية الكبرى منذ مطالع القرن العشرين. أمّا **أكسل هافمان** A. Havemann فدرس تحت عنوان: «الوعي السياسي والوعي الثقافي: ملاحظاتٌ في رؤية تاريخ سورية وكتابته» بعض رؤى المؤرّخين المُحْدثين للصراع التاريخي على سورية، والصورة التاريخية التي تصطنعها كُلُّ فئةٍ لنفسها حول هوية سورية ومستقبلها.

كانت الندوة؛ كما يظهر من هذا العرض الشديد الإيجاز؛ حافلة. لكنّ الباحثين كرروا في الغالب دراساتٍ كانوا قد نشروها أو ألقوها في مؤتمراتٍ أُخرى. فالجديد قليلٌ حتى في بحث رجلٍ مثل عبد الكريم رافق يحاول دائماً أن يقول جديداً في القراءة والمنهج والنواحي الميدانية. ما يلفت الانتباه دراسة كارل بربير التي تعتمدُ على وثائق القسّام العسكري (التي تابعها رافق بشكلٍ جزئي)؛ والتي لا يمكن تلخيصها في الواقع هنا للتفاصيل الحسابية الكثيرة الواردة فيها. أمّا ما قاله موسى ماعوز، وحسن كيّالي فليس جديداً لكنه مفيدٌ (رغم اختلافي معهما) لطرحه لمسألتي **العلماء**، **والنُخَب** بتركيزٍ مقبول. وقد علمتُ أنّ الجامعة ستنشر البحوث قريباً ـ وهذا أمرٌ محمود.